

# حمص أو «إيميسا»... مدينة للحياة والعزولو أبو المتأمرون ومدعو الحرية



أحمد طي

يوماً، كانت تنطلق من قرى البقاع الشمالي ثلاث «بوسطات» في الصباح الباكر، ناهيك عن سيارات الأجرة والدميني باص، أما الوجهة، فكانت حمص. لم تكن بعلبك، على أهميتها. مقصداً يومية لسكان قرى: عرسال، البرزالية، اللبوة، النبي عثمان، جبولة، زيود، الخرايب، البجاجة، العين، الفاكهة، الجديدة، الزيتون، رأس بعلبك، بل كانت المدينة المقصد هي حمص الغنية بأسواقها الشعبية، و«أم الفقير»، أما سكان بلدة القاع، فكانت تجدهم في حمص أكثر مما يتواجدون في بلدتهم. كل شيء موجود في أسواق حمص. كما كان يتردد في الأحاديث اليومية. بدءاً من الملابس والأقمشة، ومروراً بالتوابل والمواد الغذائية والحلويات والزيتون والزيتون والصابون، و مواد التنظيف، والبذور والشوتل والنصوب والورود، وليس نهاية بالادوات الكهربائية ولوزام الحرف والمهن المختلفة، والأدوية البشرية والبيطرية والزراعية، والصناعات الحديدية وحتى مولدات الكهرباء وو... اللائحة لا تنتهي. وعلى الطريق إلى حمص، كانت تنتشر مؤسسات صيرفة كثيرة، وكانت تلك التجارة مزدهرة، و«بتعمّر بيوت».

إبناء تلك القرى البقاعية حفظوا أسماء الشوارع والأحياء في حمص أكثر من أحياء بعلبك، لا بل أنهم، وعلى مختلف طوائفهم ومذاهبهم ومشاربهم، كانوا يحتفلون مع أهالي حمص وبلدة ريلة بعيد مار الياس الحني، وكانوا ولا يزالوا يطلقون عليه اسم «مير الحني»، وكانوا يتوجهون ليلية العيد إلى دير مار الياس في ريلة ويضنون ساعات هناك.

يا لهذه الصيغة المرّة، صيغة الماضي، كان وكانت وكانوا وو، ففي هذه الأيام لا «بواسطه» ولا «ميني باص»، تقصد حمص، والأسواق في المدينة الثالثة من حيث الأهمية في سورية بعد دمشق وحلب، تلملم شتات ما تبقى منها، والمدينة التي كانت تسمى «أم الفقير» صارت هي الفقيرة، والمدينة التي كنت تجد فيها كل شيء، وصارت هي التي تحتاج كل شيء، كل هذا الويل وأكثر بسبب تلك المؤامرة الخبيثة التي حيكّت ضد سورية، والتي كان من بين أهدافها الماكرة، ضرب الاقتصاد السوري، وجعل مدن كمحمص خراباً بعدما كانت لعقود طويلة منارة، وجعلها دماراً، بعدما كانت لمئات لا بل آلاف السننين من أجيال أشكال المعمورة، إنها المؤامرة ضد التاريخ والحاضر والمستقبل، إنها المؤامرة ضد الحياة. لكن حمص، كالنعناع، تآبى أن تغادر ميدان الحياة، ولو كثرت عليها المؤامرات.

يلقى هذا التقرير المقتضب، الضوء على تاريخ حمص وأبرز معالمها والثقافية والأثرية والدينية والشعبية، منذ نشأتها، وحتى قبيل امتداد يد الإجماع والتكفير و«الدعشة» إليها بجهة المطالبة بالحرية والإصلاح»، قرأنا بأم العين، في حمص وفي غيرها، ماهية هذا الإصلاح الذي فخر المعابد والكنايس والمساجد، وكسرت تماثيل الشعراء والنوابغ، ورائنا أيضاً تلك «الحرية» المزعومة، وكيف كان يحصل باسمها القتل والنهب وقطع الرؤوس واكل الأكياد وارتكاب الجنازير.

## أصل التسمية

من أقدم الأسماء المعروفة لحمص «إيميسا» (باليونانية: Ἰμισσα)، وهو مركب من قسمين «إيم» و«سبا»، إذ يعتقد أن الشطر الأول كان يشير إلى إله الشمس الذي اشتهرت المدينة بعبادته وبالهيكل الكبير المشيد على اسمه. ربما كان الاسم أيضاً مشتقاً من قبيلة «إيميساني» التي حكمت حمص لعدة قرون. واستقر الباحثون على أن «إيميسا» اختصر إلى «إيمس» أو «حمص» من قبل العرب بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام. أما الصليبيون، فقع مجيئهم إلى بلاد الشام، أسوها «لا شاميلي»، على رغم أنهم لم يسيطروا سيطرتهم عليها مطلقاً.

## بعض من تاريخها

حمص مدينة عريقة التاريخ، إذ نشأت فيها حضارات منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، ويعود السبب في ذلك إلى موقعها الذي يتوسط بلاد الشام، وإلى خصوبة أراضيها وإلى مناخها تشكل صلة الوصل بين مختلف مدن المنطقة. ولعل أقدم موقع سكني في مدينة حمص، «تل حمص» أو «قلعة أسامة»، ويبعد هذا التل عن نهر العاصي حوالي كيلومترين ونصف الكيلومتر. وأثبتت البقى الفخارية أن هذا الموقع كان سكناً منذ النصف الثاني لآلاف الثالث قبل الميلاد، وورد اسم حمص محرفاً في وثائق إيليا المملكة السورية القديمة. وتدل أخبار موقفة التي أتت من «تل النبي مندو» قرب حمص، على أن للمدينة حضوراً فاعلاً في العصرين البرونزي والحديدي، كذلك عُثر على فخاريات تعود إلى العصر الحجري. أقدم معلومات عن الحضارة في حمص يعود لعام 2300 قبل الميلاد. عام 1274 قبل الميلاد حاولت القوات المصرية تحت إمرة الفرعون رمسيس الثاني إدخال بلاد الشام تحت سلطانه فوقعت معركة قادش على نهر العاصي قرب المدينة. في القرن الرابع قبل الميلاد دخلت جيوش الإسكندر المقدوني سوريا وبعد وفاته تأسست الإمبراطورية السلوقية، التي أدخلت الحضارة والثقافة اليونانيتين إلى المنطقة، وأسس سلوقس نيكاتور ستة عشر مدينة في بلاد الشام منها أنطاكية واللاذقية واقاميا وسلوقية وحمص أيضاً. وبعد الفتح العربي وحكم الأمويين ثم العباسيين ثم المماليك، دخلت حمص كسائر المدن السورية حدود الدولة العثمانية، وبقيت كذلك زهاء أربعين سنة، حتى مطلع القرن العشرين، إذ شكلت حمص أهمية سياسية كبرى لسوريا، فعدد وافر من المسؤولين الحكوميين رفيعي المستوى كانوا من حمص. بعد تقسيمات غورو لسوريا على أسس طائفية عام 1920،

## سمعان؛ ثمة خطط إسعافية لإنقاذ المباني الأثرية والتراثية في حمص

تشكل بطرازها وهيبتهما وبما مزّ عليها ذاكرة حمص التاريخية. وأوضح سماعيل أنّ أهم ما في المدينة القديمة يتمثل بالنسيج العمراني، أي الحارة بازقتها والحجارة المرصوفة بها ومرابط الخيل الموجودة في جدرانها وسبوابتها واقواسها وحجارتها السوداء، وتعدّيات شرفاتها على الأزقة وبروزات بعض الغرف في الطوابق العلوية على تلك الأزقة وما ترميه من فلال عليها، وباختصار المدينة القديمة كلها منشأة تراثية.

وأشار سماعيل إلى أنّ المدينة القديمة تعرّضت خلال الأزمة لأضرار بالغة تتفاوت بين منطقة وأخرى، وهناك بعض المباني القليلة بحاجة إلى إعادة إعمار لفداحة الضرر الحاصل بها. أما غالبية المباني فهي بحاجة فقط إلى ترميم وبعضها إلى ترميم بسيط، وكلها يمكن ترميمها لتعود كما كانت قبل الأزمة في حال توفر الإمكانيات والظروف المناسبة.

وقال: «إنّ لجنة التراث قدمت خطتين: خطة إسعافية سريعة لإنقاذ المباني الأثرية إلى السقوط لإنقاذها بالسرعة الممكنة حتى لا يتفاقم الضرر وتتضاعف الكلفة، وخطة لإعادة ترميم المباني التراثية والأثرية، إضافة إلى بعض الوثائق لتعاد هذه المباني إلى ما كانت عليه، كما قدمت عدداً من الحلول والاقتراحات المناسبة لحل المشكلات الحقيقية والقانونية لهذه المباني، ووضعنا خبرتنا تحت تصرف من يريد العمل في هذا الشأن».

وختتم: «إنّ لجنة التراث في نقابة المهندسين تسعى بوسائلها الخاصة إلى تأمين التمويل اللازم من أفراد مهتمين وجمعيات ومؤسسات خاصة لترميم بعض هذه الأبنية والحفاظ عليها والعمل على الاستفادة منها».

أشار منفذ عام حمص في الحزب السوري القومي الاجتماعي العميد نهاد سماعيل، والذي يشغل منصب نائب رئيس لجنة التراث في نقابة المهندسين في حمص، في حديث إلى نشرة «سانا» الثقافية أجرته معه الصحافية لارا أحمد، إلى أنّ مدينة حمص تزخر بالمباني التراثية التي تعبر عن الذوق الرفيع والأصالة والرفق المتجذّر عبر التاريخ، وأنّ أهم المباني التراثية تقع خارج نطاق المدينة القديمة، مثل مبنى جامع خالد ابن الوليد الذي يبلغ عمره نحو 100 سنة، وهو ليس بالمبنى القديم لكنه من أهم المباني التراثية، وهو موجود في ذاكرة كل حمصي، إضافة إلى مبنى قيادة الموقع الذي كان قائماً شمال الساعة الجديدة، وقد وقف على شرفة هذا المبنى عدد كبير من حكام سورية بدءاً من الملك فيصل عام 1919 حتى الرئيس حافظ الأسد عام 1970.

وتابع سماعيل: «حتى مبنى الساعة الجديدة نفسه أصبح من المنشآت التراثية، وكذلك مقهى الروضة بشقيه الشتوي والصيفي، ومبنى المسرح وسينما الكندي والبلدية القديمة والمتحف (مع أنّ بنائه يعود إلى عام 1923) والأسواق القديمة المسقوفة والمكشوفة والحمامات بطابعها المميّز أيضاً والمنزهات ومقاهي العاصي كالميماس... ومقهى ديك الجن. حيث تسكن هذه المنشآت العامة والخاصة في ذاكرة كل من مزّ بها».

وذكر سماعيل أنّ المدينة القديمة مليئة بالمباني التراثية أيضاً مثل بيت الزهراوي وبيت عبد الله فركوح وبيت سليمان فركوح ومطعم الأغا وبيت مفيد الأمين، وغالبية الجوامع والكنايس من جامع أبو لبادو إلى الجامع النوري الكبير وكنييسة الأربعين والقدّيس البان وكنييسة أم الزنار وجامع الفضائل وحمام السراج وغيرها من المباني الدينية والسكنية التي

ببناء أثري في حدّ ذاته يعود إلى حقبة الاستعمار الفرنسي. بني المتحف على ثلاث مراحل: الطابق الأرضي عام 1922، ثم الطابق الأول عام 1949، وأخيراً الطابق الثاني عام 1963. يضمّ المتحف مجموعة من القطع الأثرية المكتشفة في محافظة حمص والتي يرقى بعضها العصر الحجري، كما يحوي لوحات من فسيفساء تمثل نهر العاصي وهيكل إله الشمس الذي اشتهرت المدينة بالتحديد له سابقاً، إضافة إلى نماذج من الأسلحة الفردية ومجموعة من الحلي البرونزية. كما يحوي مدقناً ملكياً بكامل محتوياته قُدمت قطع منها كهدية من الفرعانة في مصر إلى السلالة الحمصية المالكة فيها.

وفي هذا الصدد، يذكر أنّ حمص مثل روما، تحوي تحت أرضها سرايب غالييتها مدافن محفورة في جوف الأرض، وساهم اكتشافها ليس فقط بمعرفة طرق الحياة خلال القرون الأولى للميلاد في المدينة، بل باغناء المتحف أيضاً بقطع نادرة من الزجاج وتماثيل الإلهة فينوس وأدوات مختلفة من الذهب تستخدم في الدفن.

عام 2002، جُدد المتحف ورُممت آثاره وأعيد افتتاحه بعد ذلك عام 2005، ويبلغ مجموع القطع الأثرية فيه 4500 قطعة، ونقل عدد منها لأهميتها إلى المتحف الوطني في دمشق.

أما المتحف الثاني فيسمى «متحف الفولوكور الشعبي»، وهو عبارة عن قصر (قصر الزهراوي) يعود إلى الحقبة المملوكية خلال حكم الظاهر بيبرس وتتبع له حديقة كبيرة تحوي مدفاً وقديفة ترقى إلى القرن الثالث عشر، وتحت

المراكز التجارية في المدينة؛ أما من ناحية الغرب فتنتشر الأحياء الراقية ك: «القصور»، شارع المحطة والغوطة، والإشاعات، والتوزيع الإيجاري، والحمرات ثم الضاحية التي يفصلها عن المدينة حزام من المناطق الزراعية والبساتين، إضافة إلى نهر العاصي الذي يشكل حزاماً أخضر من دون أي آثار للعمران البشري، إذ تمنع القوانين السورية تدمير الحزام الأخضر حول النهر حفاظاً على الغطاء النباتي. نحو الغرب أيضاً تقع «جامعة البعث»، والمسكن الجامعية الملحقة بها إلى جانب عقدة مواصلات تقع قرب «حي عكرمة».

## الأبواب القديمة

خلال العهد الروماني كان للمدينة أربع أبواب، هي: باب الرستن، باب الشام، باب الجبل وباب صغير. وأعاد العباسيون بناء الأبواب وأضافوا إليها ثلاثة، وظلت موضع اهتمام الدول والسلالات المتعاقبة على حمص، حتى هدمها العثمانيون خلال القرن التاسع عشر، وذلك تماشياً مع توسع المدينة وازدياد قاطنينا، ولم يبق بعد القرارات العثمانية سوى باب التركمان والباب المسدود قائمين حتى اليوم. خلف أبواب الحمص، تقع المدينة القديمة والتي تحوي مساجد وكنايس تاريخية إضافة إلى معالم ترقى إلى العهد المملوكي.

## المتاحف ودور الثقافة

المتحف الوطني في حمص يقع في وسط المدينة ضمن

نافر لاسدين وهما رمز السلطان بيبرس.

## الأسواق الشعبية

تأتي أسواق حمص القديمة في طليعة أسواق المدن العربية من حيث جمالها وأصاها واحتفاظها بطابعها الأصلي. وتمتاز بسقوفها الاسطوانية وعقودها المقببة الضخمة التي تحمي روادها من قيفظ الصيف وبرد الشتاء. وتبدو هذه الأسواق، التي تهذب معظمها الآن للأسف، بعقودها الحجرية وواجهاتها الفخمة واقواسها الرشيقة وكأنها خارجة من عصور القرون الوسطى. وعند تلاقي سوقين أو أكثر، تبرز قبة كبيرة تتوج مفرق الطرق وكأنها قبة مسجد كبير. وبين مسافة وأخرى، تتدلى خرّم من قبتعايشان معا بينما يسود خارج السوق نور باهر.

كل شيء في هذه الأسواق شرقي ومحلي وقديم، ففي الدكاكين الصغيرة يجلس الباعة خلف سلعهم أو تجد الصانع يشتغل تحت أنظار المشتري، وهنا تعرض مئات من المنتجات كالأقمشة الحريرية والمقصية والجوخ والشاش والأشيات والأصواف إلى جانب أسواق السجاء الشرقي الفين والعمور والصاغة والخضار والتوابل، وحيث يتجول المرء في هذه الأسواق القديمة يدرك أنّ التاريخ في هذا المكان من العالَم ليس فكرة مجردة أو بطاقة مغرّرة في مكتبة مهملّة، بل هو تاريخ حيّ يعانق الجغرافيا فتراد العينان وتلمسه البدان وتستنشقه الروح.

ومن أهم أسواق حمص القديمة: سوق القوافة أو النوري، وسوق قيسارية الحرير، وسوق عبودو آغا سويدان المعروف الآن بسوق العبي، وسوق البارزباشي.

## مشاهير

احتفظت حمص بطابع معماري مترف منذ القدم، ولا تزال الآثار المعمارية الرومانية والإغريقية ماثلة بما فيها المخطط الأصلي للمدينة. في عهد الإمبراطور أنطونيوس بيوس (138 - 161) تحولت حمص من مدينة عادية إلى مدينة كبرى والمعروفة باليونانية متروبوليت. كما سكنت لنفسها نقوداً خاصة. ومع القرن الثالث كانت الزراعة والتجارة مزدهرة في المدينة على مستوى الشرق، وخلال تلك الفترة أيضاً ظهرت السلالة السيفيرية التي حكمت الإمبراطورية الرومانية برمتها، وانحدر جلّ أفرادها من حمص، عدا مؤسسها الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس الذي تزوّج من الحمصية جوليا دومنا ابنة الكاهن الأعظم لإله الشمس في حمص، وأنجبت جوليا دومنا ابنين هما كركلا وغيتا. وانتهى عهد هذه الأسرة مع آخر أباطرتها ألكسندر سيفيروس (208 - 235). ومجمل عدد أباطرة روما الحمصيين خمسة.

وانجبت حمص عبر تاريخها السحيق مئات الأعلام اللامعين كل في مجاله، ولو أردنا تعداد أسماء هؤلاء لاحتجنا إلى صفحات، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الفيلسوف لوتجينيوس مستشار الملكة زنوبيا، والطبيب والقدّيس مار إيلان الحمصي، والشاعر ديك الجن الحمصي. ولا ننسى أيضاً الباحث فراس السواح والشاعر عمر الفرا.



الساعة الجديدة



مطعم بيت الأغا



من أسواق حمص



سوق الحرير